# صورة البطل الملحمي
# في شعر السلطان أبي حمو الزياني

**د. أحمد موساوي**
جامعة ورجلة

يقول الشاعر الإنجليزي( دريدن) " إن قصيدة البطولة أعظم ما استطاعت الإنسانية أن تنتج" ، هذه القصيدة التي تواضع المبدعون و المؤرخون على تسميتها بالملحمة كانت ملتقى طموح الإنسان قديما، و من أبرز و أرقى مثيرات مخيلته، و ظلت ميدانا خصبا ينهل منه الدارس و المبدع الفنان.

و إن هذا النص الإبداعي قد لازمته سمة عامة هي البطولة و ما يحيط بها من معان و قيم، و هي خاصية و مطلب لا يصل إليه إلا من ضحى في سبيل مثل و معان سامية، غير ملتفت إلى شهوات النفس و إغراءات المادة و الجسد، ولا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تثني بطل الملحمة من غرضه الأسمى و نداء الواجب وهو خير الجماعة و الأمة و الإنسانية.

ولا يمكننا أن ننصرف إلى نص أبي حمو موسى السلطان الزياني دون الإشارة إلى أن البطولة الملحمية مصطلح ارتبط بملاحم عدة ورثتها البشرية، و هي نصوص موغلة في القدم، نتذكر منها ملحمة قلقامش، هذا البطل الأسطوري الذي رفض فراق صديقه (أنكيدو) و هو في رقدته الأبدية، بل أصر على مواصلة كفاحه بحثا عن الخلود معاندا و مكابرا، و إلى جانبه نجد الأسطورة تحكي و تروي قصة الاسكندر الأكبر و حروبه و بطولاته الخارقة من أجل الوصول إلى النبع في بحر الظلمات لعله إذا شرب منه منع الخلود والبقاء.

و هكذا الأبطال الملحميون يسعون إلى أسمى و أخطر المطالب و المبتغيات، فتتناول الأساطير و الملاحم تلك الرغبات في قالب فني خلاق يتحول من خلالها البطل إلى إله حي خالد، ولكل نص من هذه النصوص الشعرية أو النثرية أساليب خاصة في التعبير عن هذه المعتقدات و الكشف عن تلك الرغبات الكامنة في البقاء. فهذه ملحمة قلقاس و تلك إلياذة هوميروس، و أخرى هي إنياذة فرجيليوس ، و غيرها من الملاحم التي أبرزت لنا إنجازات أبطالها و أعمالهم الخارقة و صفاتهم المقترنة بالآلهة بصورة رامزة إلى تحقيق المطلب القديم و هو الوصول إلى نبع الخلود.

و ما يشدنا أكثر في هذه النصوص هو تلك التركيبة الجمالية و الواقع البطولي الملحمي للشخصيات أكثر من ميلنا إلى الغاية المرجوة و الهدف المرسوم، و هذا ما نبحث عنه أيضا في النصوص الأدبية العربية الموروثة، كملحمة عنترة أو الهلالية أو ملحمة ( علي بن أبي طالب–كرم الله وجهه–)

وغيرها، فهي نصوص نثرية كانت أو شعرية، نشترك مع ملاحم الغرب في الكثير من النقاط لأنها تكشف عن نوازع بشرية، و طموحات يحملها الأبطال إضافة إلى تحولهم إلى أبطال أسطوريين في المخيلة المبدع وهي صفات تربطهم بأمثالهم السابقين من أبطال الرومان و اليونان الخالدين أو الطامحين إلى الخلود.

و لنا في أدبنا نصوص عدة لم يلتفت إليها الدارسون، تكشف عن هذا التوجه الملحمي وتؤكد كبعض نصوص المتنبي الحماسية و شعر عنترة، و التي لا تخلو من سمات البطل العربي الفاتح و القاهر للأعداء بقوته و جلده و بخصاله الحميدة. فشدة و كرم و رقة في الوقت نفسه، و البطل الملحمية الحق هو جماع كل الخصال الإنسانية.

و لعل أقرب نص توفر لنا في هذا التوجه هو نص السلطان الشاعر أبي حمو موسى الزياني حينما كان يسعى إلى استرجاع ملك قومه و دخل تلمسان فاتحا عام 760هـ، و من خلال قصيدته هذه سنحاول تلمس الملامح التي تشكل صورة هذا السلطان البطل الذي أبى إلى أن يخلد فتحه و دخوله عاصمة مملكته التي حرم منها لفترة طويلة ، فكانت العودة و كان النصر بطوليا ملحميا يستوجب نصا شعريا ملحميا يتطابق مع ذلك الواقع.

و من خلال اقترابنا من النص نجد سجايا البطل السلطان تنكشف الواحدة تلوى الأخرى، وعلى رأسها الجانب الإنساني العاطفي الصادق الذي يكشف معدنه و رقته أمام المواقف التي تصدم دخيلة كل إنسان.

**جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم لما شحطتها من هبوب الرواكم**

**وقفت بها مستفهما لخطابها و أي خطاب للصلاد الصلادم**

**و صفقت ما بين الظلول خوامسي و فاضت سواقي الدمع مثل الأراقم**

إنها الفطرة الإنسانية و رقة النفس لدى فاتح المدينة و مسترجع المجد الذي فقد، و لكنها وقفة ليست دائمة لأننا سنصل إلى مرحلة التحول من الألم و اللوعة و ذكرى الأزمنة الغابرة:

**ديار عهدنا بها الشمل جامع مع الغانجات الآنسات النواعم**

**و كم ليلة بات السرور مساعدي بسعدى و سلمى و المنى أم سالم**

فالتحول كان إلى الشدة و الجلد و الصبر على المكاره بغية النصر، ذلك الحلم الجميل الذي اعتاد أبطال الملاحم التطلع و السعي إليه.

**قطعت الفيافي بالقلاص و إنما تجاب الفلا بالخف أو بالمناسم**

**و قد خلتها بين الرياح زوابعها تسابق في البيدا ظليم النعائم**

**ومعها أسود الحرب تطوي بها الفلا يرون المنايا بعض تلك المغانم**

**وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد لنيل العلى و الصبر إذ ذاك لازمي**

وتنضاف إلى شدة ووعورة الطريق و أهوالها، كوعورة طريق( إنياس)بطل الإنياذة الذي واجه العواصف و خطورة البحار من أجل مبتغاه وهو بناء مجده في روما، قلنا تنضاف إلى ذلك شدة الحرب و النزال و مواجهة العدو، فيستعين بالصبر و الرجال الشداد.

**و كم ليلة بتنا على الجدب و الطوى نراقب نجم الصبح في ليل عاتـم**

**على متن صهال أغر محجل مديد الخطى لم يخشى صعب الصلادم**

**رجال إذا جاش الوطيس تراهـم أسود الوغى من كل ليث ضبـارم**

وهنا تسعى الصورة الملحمية إلى التكامل عن طريق ذكر إطار حركة البطل و فعله حيث لا يغفل الشاعر ما يحيط به من رجال و جياد و صفاتهم، و كذا صبرهم على الألم و المواجهة لأن قائدهم رمز في الشدة و الجلد.

**وجبت الفيافي بلدة بعد بلـدة و طوعت فيها كل باغ و باغم**

**مكر بيوم الحرب لا يشتكي الوني مفر إذا طالت عظام الهزائم**

وفي هذين البيتين نلحظ انصراف الشاعر إلى ضمير المتكلم (أنا) بعدما سبق و أن استعمل ضمير الجماعة (نحن) و كأنه بطل فرد يقود جماعة و هذه سمات قديمة للبطل الأسطوري فهو بطل فردي ك(أوديسيوس) في أدوسية هوميروس، و(أغاممنون) في الإلياذة، الذين حققا البطولة الفردية الأسطورية، فهنا البطل عندنا شد البطولة الملاحمية

إليه فهو القوي الشديد المتميز.

كما نجد في النص تطورا للأحداث و الواقع الملحمية المرتبطة ببطولة السلطان الفاتح و إنجازاته العربية:

**نطارد فيها الخيل بالخيل مثلها فكان على الأعداء كنز الهزاعـم**

**حملنا عليهم حملة مضرية فولوا شرادا مثل جفل النعائـم**

**فكانوا إلى الطير الغشيم فرائسا و كانت على الأعداء شؤم الذمأئم**

إنه تصوير رائع لوقائع الحرب و نتائجها، و ليست ببعيدة عن تلك الصور التي رأيناها في إلياذة هوميروس حيث الكر و الفر و النزال، و القتلى تركوا فرائسا للسباع والوحوش.

وما نلاحظه على النص أيضا تلك البطولات المتوالية، و التي تكشف عنها الصعوبات والعراقيل التي يتعرض لها البطل و هي بمثابة اختيارات ترشيحية تكشف معدن و أحقية السلطان بالبطولة في الملحمة، و

نجد مايشابهها في الملاحم الأسطورية حيث تعترض الآلهة و الجن و المصائب البطل الأسطوري فتعرقل سيره و تكشف في الوقت نفسه عن مقدرته و طاقاته في تخطي الصعاب و الأهوال، ف( إنياس) تعترضه الرياح والعواصف في البحار التي أرسلتها زوجة الإله جوبيتر وكرهها هذا البطل، و لكنه يتجاوزها ويواصل رحلته البطولية ، وهكذا نجد بطلنا ينتصر في مرحلة ثم يواجه صعوبات أخرى في مرحلة موالية فلا تدوم الفرحة بالنصر:

**وهبت رياح النصر من كل جانب وجاءت إلينا مبهجات الغنائم**

**ولما قضينا الأمر في الحرب منهم رحلنا بعون الله نحو المعالم**

ولكن سرعان ما تلوح في الأفق محطة أخرى للحرب و النزال، لتدلك على أن رحلة البطل مليئة بالمتاعب غنية بالمكاره، تشترط الحذر و اليقظة و الصلابة:

**درجنا إلى درج و لاحت بشائر بهلك الأعادي الناعسين الأشائم**

**ألا أيها الناعي البشير الذي نعى أمير مرين حزت أسنى المقاسم**

**لقد قرب الله البعيد بهلكه فبشراك بالخيرات يا خير قادم**

**وصارت أسود الغاب تأتي مطيعة و عادت لنا الأيام مثل المواسم**

**وعجبنا و عرجنا على واد يشر و جزنا المخاض كالليوث الضراغم**

ومن مميزات الشعر الملحمي تعداد وسائل الحرب و ذكر أحداثها و تقريب الصور إلى الناس، فيذكر زمن الحركة و التقدم، وتوصف الرايات المحمولة، و صفوف المقاتلين، وحالة الأعداء و يعرف بالسيوف وجودتها وأنواعها، ولا ينسى الشاعر فنون القتال والنزال:

**كررنا عليهم كرة بعد كرة و قد سعرت للحرب نيران جاحم**

**بضرب يزيل الهام عن مسقره وطعن مضى بين الكلى و الحيازم**

ولا ينس ذكر نتائج تلك الملاحم:

**فهذا أسير صفدته يد الوغى و هذا قتيل في عجاج المصادم**

وفي الأخير، و بعد ذلك العناء وتلك المواجهات البطولية، يصل البطل الملحمي إلى مبتغاه ويرد من منبع النصر:

**دخلت تلمسان التي كنت أرتجي كما ذكرت في الجفر أهل الملاحم**

**فخلصت من غصابها دار ملكنا و طهرتها من كل باغ و جارم**

**فصارت ملوك الأرض تأتي مطيعة إلى بابنا تبغي التماس المكارم**

في هذه المقاطع الأخيرة يكشف لنا البطل الفاتح خصاله في سياسة دولته بعد افتكاكها من الغاصبين و عودته إلى أمر الله ونصرة دينه، فالارتباط بالله واضح من البداية ثم العودة إليه بعد النصر والفتح المبين، فكما الأبطال الأسطوريون لا يخرجون عن طاعة آلهتهم وتقديم القرابين بعد النصر والعودة إلى الوطن للاحتفال به، يقدم السلطان قرباته إلى ربه عن طريق خدمة دينه وشكره والصلاة على نبيه الكريم.

**فقمنا بأمر الله في نصر دينه وفي كف ما قد أحدثوا من مظالم**

**فلله منا الحمد و الشكر دائما وصلى على المختار من آل هاشم**

فإن ما ميز هذا البطل الملحمي العربي المسلم هو الاتزان و الخضوع لسلطان العقل والارتباط بالله وسنة نبيه، في سلوكياته و حركته المستمرة نحو استرجاع مجده وملكه، فلا شهوات ولا عواطف تصرفه عن خطه و مشروعه، و سعيه الدءوب لرفع الظلم عن وطنه وذويه، فسار على نهج سليم واضح من بطولة لأخرى، ومن فتح لأخر، حيث حقق الحلم المنشود وكسر شوكة الأعداء الذين عاثوا فسادا قي أرضه ومملكته فطهرها منهم ومن جرائمهم وفتح بابه للوافدين والمبايعين و المباركين بالنصر العظيم، هذا النصر الذي سبق وأن تمتع به( أوديسيوس) في القديم ونجد في حوار إله الأولمب(زيوس) مع(منيرقا) ربة الحكمة "... ما دام أديسيوس قد ثأر لنفسه من أعدائه، فليكن السلام على الأرض، و ليحل الأمان في ربوعها، و ليتقاسم الملأ على الود والصفاء، وليحكم أوديسيوس بين الناس بالعدل... وعلينا نحن أن ننزع ما في صدورهم من غل، ويطرحوا ثاراتهم ثم لتكن لهم من أنفسهم أمنة، و لتجر البركات عليهم أجمعين، وليصبحوا بحولنا أصفياء متحابين".

ولأبى حمو سليمان نص آخر يزكي هذه الوجهة ويدعمها ويدلل على أنه بطل في الحرب وبطل في السلم بسجاياه وقربه من الله:

**حملني الملك ومن يقوى يحمي ما فيه من الثقل**

**إلا بمعونة خالقنا مولى النعماء وخير ولى**

**أحمي المظلوم وأنصره وأقيم الحق على عجل**

**أنزلت الناس منازلهم وتركت الظالم في وجل**

**وأنا للطفل كوالده وأسوق الشيخ على مهل**

**و الرفق كذلك من شيمي و العدل به أعطي أملي**

وإنها لنوايا حسنة وخلال بطل احتفظ له شعره بأزهى الصور الملحمية،وأردف على ذلك تاريخ الأبطال العرب و المسلمين.

# الإحالات و المراجع

1 - المصطلح في الأدب الغربي، ناصر الحاني، المكتبة العصرية بيروت، ص111.
2 - هندسة النص في السرد الأسطوري الملحمي (جلجامش) ، قاسم المقداد ، دار السؤال ، دمشق ، ص : 44.
3 - أشكال التعبير في الأدب الشعبي، نبيلة إبراهيم، مكتبة غريب، القاهرة، ص: 63.
4 - الأدب الإغريقي، تراثا إنسانيا و عالميا، أحمد عثمان، دار المعارف، ص: 30 ،31.
5 - أبو حمو موسى الزياني ، (حياته و آثاره) عبد الحميد حاجيات ، ش ، ن ، ت ، الجزائر ،ص : 299.
6 - المرجع نفسه ، ص: 299.
7 - المرجع نفسه ، ص: 300.
8 - نفسه ، ص: 300.
9 - نفسه ، ص: 300 ، 301.
10-نفسه ، ص: 302 ، 304.
11- نفسه ، ص: 304.
12- نفسه ، ص: 304.
13- نفسه ، ص: 305.
14- نفسه ، ص: 305.
15- نفسه ، ص: 307.
16- نفسه ، ص: 308.
17-الأوذيسة هوميروس ، ترجمة دريني خشبة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ص : 303.
18- أبو حمو موسى الزياني ، (حياته و آثاره) ،ص : 310.